الفصل الأول
واقع المرأة الأوروبية

تتعالى هـٰذه الأيام صيحات تطالب بمساواة المرأة مع الرجل ، وتبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة وتعقد المؤتمرات وتؤسس الجمعيّات ، وتسمى بأسماء مغرية تشرَئبُّ لها القلوب كجمعية الدفاع عن حقوق الإنسان ، وجمعية كرامة المرأة ، وجمعية العدالة وحقوق الطفولة وما إلى ذلك .

وكل هـٰذه الجمعيّات تتلقى دعماً واضحاً من الدول الأوروبية ، وكأن الدول الأوروبية تتقاطر دموعها حزناً على واقعنا العربي في أيامنا هـٰذه ، وكأنّها تتحرّق تحرّقاً على نشأة عدالة اجتماعية في واقعنا العربي .

ويشمل هـٰذا الفصل المباحث التالية :

المبحث الأول : ادّعاء الأوروبيين للحضارة وبيان جهلهم الحقيقي .

المبحث الثاني : معاناة المرأة الأوروبية .

المبحث الثالث : عمل المرأة .

* * *

المبحث الأوّل
(ادّعاء الأوروبيين للحضارة وبيان جهلهم الحقيقي)

إذا نظرت نظرةً تاريخية قريبة إلى الدول الأوروبية وجدت الحملات الصليبية التي غزت شواطئ بلاد الشام وشمال أفريقيا ، واستعمرتها عشرات السنين وسفكت من الدماء الشيء الكثير ، وقتّلت وذبّحت وشرّدت ويتّمت ، ثم كتب الله النصر لهـذه الأمة بإخراج صلاح الدين الأيوبي ، فأخرج هؤلاء المعتدين من أراضي الأمة الإسلامية ، وما لبثت الأمور أن عادوا مرة ثانية تحت شعار الصليب ، فاحتُلَّت أغلب الدول العربية ، فوقعت العراق تحت الاحتلال الإنكليزي ووقعت سورية تحت الاحتلال الفرنسي ، وكانت مصر ودول الخليج العربية ملحقة بالتاج البريطاني ، وكان شمال المغرب قاطبة تحت الاحتلال الفرنسي ، باستثناء ليبية التي خضعت للفاشية الإيطالية[1] .

فليس من الخفي على إنسان عاقل المجازر التي ارتُكِبَت ، والحقوق التي سُلِبَت ، والمجاعات التي سرت على هؤلاء العرب المسلمين أثناء هـٰذا الاستعمار البغيض ، وبعد أن كتب الله عزّ وجل خروج الاستعمار من الدول العربية والإسلامية ـ ولو كان خروجاً ظاهرياً ـ عادت حملات مسلّحة وزرعت إسرائيل في المنطقة ، فقامت حروب شتى كحرب ٤٨ ، وحرب الـ ٦٧ والاعتداء الثلاثي على مصر الذي ضمّ الفرنسيين والبريطانيين والإسرائيليين ، فانهالوا بقنابلهم المدمّرة قذفاً على المدنيين المصريين ، عدا المجازر الأخرى التي جرت وما زالت تجري حتى الآن على الشعب الفلسطيني المحتل المناضل الشريف .

---

(١) الفاشيّة : سياسة متطرفة ومنهج عقائدي عنصري تسلطي فوقي .

ولم يتورع هؤلاء المجرمون عن ضرب العراق باليورانيوم المنضّب[1] الذي يعتبر سلاحاً عالمياً محرماً ، مما أسفر عن عشرات الألوف من حالات تشوه الأطفال وتشوه الكبار وخراب المحاصيل الزراعية ، ودمار الأرض وما عليها في عراقنا الشقيق .

ثم بعد كلّ ذلك ترى أنّ هؤلاء الأوروبيين تتقاطر دموعهم حرصاً على العدالة الاجتماعية وعلى ظلم الرجل العربي المسلم للمرأة!

ولا أجد مثلاً دقيقاً يعبر عن هـٰذه الصورة إلا كرجل يحمل خنجراً بيده ، ثم يقطّع به أحشاء رجل آخر فتسيل الدماء حتى تغطي سطح الأرض ، ثم بعد ذلك يحمل مشطاً فيهذب له من شعره المتناثر! فهل يمكن لرجل عاقل ينظر إلى هـٰذه الصورة أن تنطلي عليه خدعة حب هـٰذا المجرم للجمال؟! أم أنه يبدو من هـٰذه الصورة تعطش هـٰذا الذئب البشري إلى سفك الدماء ، وطحن العظام تحت أضراسه القذرة؟!

إنّك ترى أنّ هؤلاء الأمريكيّين يضربون أفغانستان بقنابل مدمرة ، لم تستعمل على الصعيد العالمي حتى اليوم ، وإنّ كلّ قنبلة منها لتزن سبعة أو ثمانية أطنان!

فتصوّر الدمار الذي يحيق بمن تُلقى عليه هـٰذه القنابل ، ولا يفرّقون بين مدنيّ وغير مدني ، وإنّ النّاس الذين يقطنون بعيداً عن مرمى القنابل بمئات الأميال ، يتعرّضون لخروج الدماء من عيونهم وآذانهم ، ومن أفواههم وأنوفهم ويصابون بالصمم والعمى نتيجة اختلال الضغط الجوّي .

فما بالك بالناس الذين ترمى عليهم هـٰذه القنابل مباشرة ، وترى أنّ رامي القنابل ذاته يقف على منبر ، ويدّعي أنّه يدافع عن حقوق الإنسان ويقول : إننا لتتحرّق أفئدتنا لفرض الحكومة الأفغانية غطاء الرأس على المرأة! إننا نطالب بتحرر المرأة الأفغانية من هـٰذا القيد! هـٰذا الرجل ذاته الذي يتزعم الحملة الصليبية هو الّذي يقتل أبناء هـٰذه المرأة ، ويقتل زوجها ، ويهدّم دارها ، بل

---

(١) اليورانيوم المنضب : مادة مشعة ذرية ذات آثار مدمرة على البشرية . .

يحطّم دولتها. فهل من الممكن أن نصدّق أنّ هـٰذا الرجل يسعى لتحقيق حرية المرأة الأفغانية أو المرأة المسلمة على الصعيد العالمي؟!

إنّ هـٰذا الكلام لم يعد يسري على الحمقى، ولكن يكفي أن تعلم أنّ هناك أناساً من أبناء جلدتنا يتلقّفون هـٰذا الكلام فيحشون به صدورهم ورؤوسهم وأفواههم، ويقفون على منابر الثقافة يصيحون: تعالوا لنحرر المرأة فتغدو المرأة العربية كالمرأة الأوروبية!

ونحن نسأل: كم من الدولارات قبض هؤلاء العملاء وذيول الغرب من أجل أن يحاربوا أمهاتهم، ويحاربوا بناتهم ويحاربوا أخواتهم، ويدنّسوا مقدّساتهم؟! بل إنّهم يحاربون أنفسهم؛ لأنَّ مأوى هؤلاء إلى جهنّم وبئس المصير. ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فهؤلاء العملاء يدّعون أنّهم أعلم من الله وأقدر على وضع القانون الذي تصلح به حياة الخلائق، وإذا نظرت إلى قمة أحلامهم تراهم يسعون إلى أن تكون المرأة العربية المسلمة مسخاً حقيقياً للمرأة الأوروبية في واقعها الحالي.

* * *

المبحث الثاني
(معاناة المرأة الأوروبية)

تعالوا لنرَ إلى أي اتجاه يسوقنا هؤلاء العملاء ، وما هي حقيقة المرأة الأوروبية ، وهل حقاً أنّها تتمتّع بسعادة حقيقية ، وأنّ العدالة في القوانين الاجتماعية والتشريعية الأوروبية قد أخذت بيد المرأة إلى قمة الأنفة والاستقرار؟ .

قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت: ١٧] ، وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوّة الأولى: إذا لم تستح فافعل ما شئت»[١] .

إنَّ من أهم العوامل التي دمرت الأمم الغابرة كأمة ثمود وعاد ولوط ، هي المجاهرة في المعصية وتحكيمهم لشهواتهم ومنظورهم الضيّق في أمور حياتهم ، وعدم تقيّدهم بتعاليم الله تعالى التي أنزلها على ألسنة رسله الكرام .

ونتيجة لذلك أصاب هؤلاء الأناس دمار وأيّ دمار! فتحطّمت بلدانهم ، وتخربت أحياؤهم ، وقضوا بصاعقةٍ ، أو بوابل من السماء ، أو بريح صرصر[٢] .

فهل هؤلاء العملاء يقودوننا إلى أن تكون نهايتنا كنهاية هؤلاء الأقوام؟ وصدق عليه الصلاة والسلام في قوله:

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب باب (إذا لم تستح فافعل ما شئت) رقم الباب ٧٨ ـ ج١٢ ـ ص: ١٥٤ ـ رقم الحديث ٦١٢٠ . أخرجه أبو داود في سننه ـ كتاب الأدب ـ باب الحياء ـ رقم الباب ٧ ـ ج ١٣ ـ ص: ١٢٧ ـ رقم الحديث ٤٧٨٩ .

(٢) الريح الصرصر: الريح الشديدة السرعة .

«إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

فإذا خرج الحياء وضاعت النخوة ، كان الناس كالحيوانات ، بل أقولها وبشكل صريح: إنَّ هناك بعض الحيوانات تخجل من بعض الأفعال ولا سيما اللقاءات الجنسيّة ، فإذا رأيت الجمل على سبيل المثال ، ترى أنّه يختار الوقت المناسب من أجل أن يقترب من زوجته بحيث لا يراه أحد ، وإذا رآه أحد فإنه يصاب بأزمة وهيجان عظيمين.

وقد نقل لي أحدهم أنّه مرّ في ساعات الغلس[1] من الفجر بسيارته مسرعاً فشاهد جملاً يضاجع ناقةً ، وعندما رأى الجمل ذلك اقتحم راكضاً خلف هٰذه السيارة ، فزاد الرجل من سرعة مركبته ، عندها يئس الجمل من تتبّعه وعاد ينطح رأسه بصخرة كبيرة.

نعم إنّ هناك من الحيوانات ما يمتلكون شرفاً لا يمتلكه كثير من البشر ، وإنّ هناك حيوانات أخرى كالقطط والكلاب تتضاجع على الطرقات وعلى الأرصفة وفي كلّ مكان على مرأى من الجميع ، ولا يشعرون بشيء من الحرج في ذلك.

إنَّ هؤلاء العملاء يسعون لجرّ أتباعهم ليكونوا نموذجاً حيوانيّاً كالكلاب والخنازير ، ومن أجل ذلك يتبيّن لك حكمة الله عز وجل في تحريم أكل لحم الخنازير ، فإنّ الخنزير يتّصف بنجاسة وقذارة سواء في لحمه وفي سلوكه ، وفي زواجه ، وسواء في تفكيره ، فالنجاسة قد أغرقته من قمّة رأسه حتى أخمص قدميه.

فترى أنَّ الخنزير يقترب ليضاجع أمّه ، ثمّ ينتهي من مضاجعتها فيضاجع ابنته ، ثم يرى خنزيراً آخر يضاجع أمّه أو زوجته فيأتي ويداعبه ليؤنسه أثناء هٰذه المضاجعة. فإذا كان شعار هؤلاء القذرين هو الخنزير ، فنقول لهم: كونوا خنازير كما يحلو لكم ، ولكن الأمة الإسلامية نساءً ورجالاً تأبى أن تكون من هٰذه الخنازير!

---

(١) الغلس: بعد بزوغ الفجر مع استمرار الظلمة.

ومن المؤسف في زماننا هـٰذا الذي ضاعت فيه كثير من القيم الإنسانية والدينية والأخلاقية ، فقد ضاعت النخوة من رؤوس الرجال ، وانتزع الحياء من وجوه الكثير من النساء ، وذلك يعتبر علامة من علامات الساعة أجارنا الله منها . . .

فغدا من المألوف أن تنظر في الطرقات إلى امرأة تسير شبه عاريةٍ ، وينظر إليها جميع الذكور بشهوةٍ وعيون تفيض بالزنا ، ويسير إلى جوارها رجل بشنب طويل يضحك ويتفاخر بأفخاذ زوجته .

هـٰذا النموذج الذي تراه هو النموذج الغربي ، وهو النموذج الذي يسعى عملاء الغرب إلى ترسيخه في بلاد الإسلام ، ويكون وضعاً طبيعيّاً لا إشكال فيه .

كيف يسعى هؤلاء العملاء عن طريق جمعيّاتهم ومؤسساتهم ومؤتمراتهم إلى أن يضعوا ذلك النموذج الغربي موضع التطبيق في مجتمعاتنا الإسلاميّة؟ .

إنَّ كلّ ما في مجتمعاتنا الإسلامية يتناقض تناقضاً تاماً مع ما هو موجود في المجتمعات الأوروبية . بل إنَّ الفرق بين مجتمعاتنا الإسلامية والمجتمعات الأوروبية كالفرق بين الثرى والثريا[1] .

هـٰذا على الأقل ما كانت تتمتع به مجتمعاتنا الإسلامية قبل عصر الانفتاح المدمّر الذي أصابنا في هـٰذا الزمان .

ونتساءل ونقول : هل يعاب في الغرب على من يشرب الخمر؟ ! .

هل يعاب في الغرب على من يدمن المخدرات؟ ! .

هل يعاب في الغرب على الأب الذي يضاجع ابنته؟ ! .

هل يعاب في الغرب على الرجل الذي يمارس القمار؟ ! .

هل يعاب على الرجل أن يشاهَدَ مع امرأة عراةً تماماً في حديقةٍ يتضاجعون كتضاجع الكلاب؟ ! .

---

(١) الثرى : الأرض ـ الثريا : السماء .

هل يعاب في الغرب على الشاب عندما يبصق في وجه أبيه ويهجره هجراً ملياً ، ولا يزوره ولا مرةً واحدة في العام؟! .

هل يعاب على الرجل في الغرب عندما يحمل أمّه ويقذفها في دورٍ للعجزة ويقول لها: قد سئمت النظر إلى وجهك الكئيب؟! .

هل تعاب المرأة على إضاعة شرفها؟! .

هل تعاب الفتاة الصغيرة المراهقة عندما تأتي دار أبيها تصطحب شاباً مراهقاً ليفجر في عرضها ، ثمّ يصعدون إلى صدر البيت ويغلقون الباب على أنفسهم ويتعاوون داخل هـٰذه الغرفة كعواء الكلاب؟! وإن الأب والأم من خارج الغرفة يبتسمان فرحاً لنضوج فتاتهم!! .

بل وقد صدرت تشريعات وقوانين غربية بحيث إنّ الأب إذا كان من أصل شرقي وتعرّض لابنته في هـٰذه الحالة ، فما أيسر على هـٰذه البنيّة أن ترفع سماعة الهاتف وتضرب رقماً خاصاً؛ لتأتي رجال الشرطة وتقبض على الأب ليُسجن ويُحذّر من الاعتداء أو التدخّل في حرية ابنته الجنسية .

هل وصلت مجتمعاتنا الإسلامية إلى أنه لا يوجد فتاة قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها تحافظ على بكارتها ، وإذا وُجدَت هـٰذه الفتاة فإنّها توسم بالجهل والتخلّف النفسي والحماقة والتراجع وكلّ أوصاف السوء؟! بل إنّهم في هـٰذه المجتمعات يتفاخرون بالسرعة التي تفرّط فيها الفتاة بشرفها ، فإذا فرّطت الفتاة بشرفها في الثانية عشرة من عمرها ابتسموا ابتسامةً راضية ، وقالوا: الحمد لله الذي جعل ابنتنا فتاة ناضجة واعية!

وهل يعاب في هـٰذه المجتمعات أن يتزوّج الرجل برجل مثله ويمارسان اللّواط ، بل إنَّ الأمر لا يقف عند ذلك ، بل إنّهم يدخلون إلى الكنيسة ، ويقوم رجل الدّين المبتَذَلُ بإجراء عقد شرعيٍّ بينهما ، ثم تأتي امرأة وتتزوّج بامرأة أخرى وتمارسان السِّحاق. ويقولون: إنّ هـٰذا نوع من التحرر ، وترى أنّهم إذا منعوا من ذلك بشكلٍ أو بآخر خرجوا بمظاهراتٍ عنيفةٍ يطالبون باللواط والسّحاق! .

وأذكر في هـٰذا المقام قصّةً لا أنساها:

لقد خرج رجل مسلم شرقي متهرّباً من سوء المعيشة في ديار الإسلام إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأخذ معه ابنتيه وزوجته، وبعد سنوات قليلة علم أنّ ابنته قد تزوّجت برجلٍ صليبيٍّ وفرّت معه، وعلم أنّ ابنته الثانية قد التحقت بدور المومسات، واكتشف أنّ لزوجته عشيقاً يفجر بها، وعندما أراد أن يهرب من الولايات المتّحدة وقد أضاع شرفه وأسرته هناك، توجّه إلى البنك ليأخذ بقيّة أمواله، فشاهد سيارةً توقّفت في منتصف الطّريق وهبط منها زنوج، وأخذوا يمسكونه ويجذبونه جذباً إلى السيّارة يريدون خطفه ليمارسوا معه اللّواط، فتمسك بعمود كهربائي وتشبّث به والنّاس رجالاً ونساءً يمرّون ويتلفتون إليه وإلى هـٰذه العصابة من الزنوج وكأنّهم لم يروا شيئاً، فيديرون وجوههم ويتابعون سيرهم، ولولا حكمة الله عز وجل ورحمته بأن مرّت سيّارةٌ للشرطة في هـٰذا الوقت، فهرب الزنوج وعاد هـٰذا الرّجل إلى وطنه، وهو يعلم أنَّ زوجته وابنتيه قد سقطوا في بؤرة من الفساد والهوان والزنى تندى لها جباه الشرفاء.

لقد وصل الأمر في مجتمعاتنا إلى درجة أنَّه مرّت دوريّة من الشرطة في مساء ليلة من الليالي فسمعوا أنيناً يخرج من عبوّةٍ للقمامة، فنظروا فيها وإذا بامرأةٍ عجوزٍ قد ألقيت فيها، فأخرجوها وأخذوها للمعالجة، وبعد ذلك علموا أنَّ ابنها تململ من وجودها في داره فألقاها في حاوية القمامة!

منذ متى وهـٰذه الظاهرة في بلاد الإسلام، لولا أنَّ هؤلاء العملاء يحاولون نقل التلوّث الغربي إلى بيئتنا الإسلامية.

متى كنا نخرج وزوجاتنا إلى الحدائق العامة؛ من أجل أن نفرّج قليلاً عن أنفسنا، فتندى جباهنا خجلاً ونعود فارّين بديننا ونسائنا إلى بيوتنا، لكثرة المظاهر القذرة، فترى هناك شابّاً يعانق فتاةً، وترى فتاة تقبّل شاباً؟!

من أين أتتنا هـٰذه المصائب؟ أليست على أيدي هؤلاء العملاء القذرين؟.

وتلاحظ أنَّ هؤلاء الناس قد تحرروا من جميع القيم الدينية والأخلاقيّة،

وأباحوا كل ما حرّمه الله عز وجل على البشريّة ، على لسان جميع رسله الّذين أرسلهم إلى شتى أقطار العالم.

وكلّ ذلك يغطّونه تحت شعاراتٍ مضلّة كاذبة ، هـٰذه الحريّة إنّها حريّة المرأة ، إنّها حرية الطفولة ، إنّها حريّة الإنسان ، إنّها حريّة الشيطان ، إنها حرية الأبالسة ، وإنّهم يتعامون عمداً عن الفارق بين الحريّة وبين الاعتداء على حقوق الآخرين ، بين الحرية والوقاحة ، بين الحريّة والدعارة ، بين الحرية والعهر ، بين الحرية والكفر.

وبتلك الفلسفة الغربية التي يحياها الواقع الغربي ، نجد هناك رجلاً يرى أنَّه من شأنه أن يمارس حريّته ، فيسطو على أرواح الآخرين ، وآخر يرى أنَّه يمارس حريّته فيسطو على أموال الآخرين ، لولا بعض القيود والروادع التي لا زالت تطبق لتحوّلت هـٰذه الدول إلى عصابات مافيا وقتلةٍ وإرهابيين.

لقد جاء في صحيفة النيوز تايم في عددها الصادر في ٦ آب عام ١٩٩٧ أنَّه قد انقطع التيار الكهربائي قليلاً في ولاية كاليفورنيا لمدة دقائق معدودة ، والتي يعيش فيها عشرة ملايين نسمة تقريباً ، وقد ارتكبت في هـٰذه المدة ثمانين ألف جريمة سرقة ، نعم خلال ثلاث دقائق ارتكبت ثمانين ألف جريمة سرقة ، ومنها سرقة مع القتل!

فلَكَ أن تعلم ما هو هـٰذا المجتمع الغربي الذي يريدوننا أن نطبقه على حياتنا ، قال تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦] ، وقوله تعالى : ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ [الزمر: ٨].

ومن خلال هـٰذه الآيات يتبيّن لنا أنّه يجب أن لا نُخدع بما يقال ولا سيما على ألسنة هؤلاء العملاء: انظروا إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة لقد غدت أقوى قوّة على الصعيد العالمي. انظروا إلى اقتصاد أوروبا المتين ، انظروا إلى تقدّمهم الصناعي والتقني ، انظروا إلى غزوهم لعالم الفضاء!

بل يجب أن نعلم أنَّها مظاهر لا قيمة لها ولا حقيقة لها ، وأنَّ السوس الاجتماعي الذي ينخر في خشب بنيانهم الاجتماعي ، سيحوّل هٰذه المدنيّات الفارغة إلى بؤر للدمار ، ومجمّعاتٍ للقمامة ، وهٰذا شيء أدركوه هم أنفسهم ، وأخذوا على عاتقهم الفلسفة القائلة : إذا كان الموت لا بد سيصيبنا والدّمار لا بدّ سيحيق بنا ، فتعالوا لنقتل هؤلاء العرب والمسلمين وندمرهم ، كي لا يكونوا هم الأحياء ونحن الأموات .

فإنَّ علماء الغرب الصادقين مع أنفسهم أدركوا إدراكاً حقيقياً وعمليّاً أنَّ هٰذا الد مار الاجتماعي الّذي أصاب حضارتهم المادية سوف يؤدي إلى انهيار هٰذه الحضارة .

وكان الاتّحاد السوفييتي نموذجاً واضحاً على ذلك ، وسوف يكون للولايات المتحدة والوحدة الأوروبية المصير نفسه ، وإلى المقبرة نفسها إن شاء الله تعالى .

ويجب علينا كمسلمين أن نحذر من تصدير هٰذا الفكر إلى عالمنا ، فالمسلمون ورثة الحضارة ، وتاريخهم العريق يُثبت أنَّهم ما تقدّموا ولا تطوّروا ، ولا وصلت جيوشهم إلى أبواب الصين وإلى أبواب فيينّا ، ولا فتحوا جنوب أوروبا إلا بالتزامهم بالإسلام .

وأما قبل الإسلام وما بعده في واقعنا الحالي ، فقد هبطنا إلى مقام تَنْدى له جباه الشرفاء خجلاً .

إنَّ تطوُّرنا في إسلامنا ، وتقدّمنا التقنيّ في إسلامنا ، وتقدّمنا الاقتصاديّ في إسلامنا ، وتميّزنا العسكريّ في إسلامنا ، ونهضتنا الفكريّة والاجتماعية والفلسفيّة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بإسلامنا ، فنحن قوم أعزّنا الله بالإسلام ولو ابتغينا العزّة بغيره أذلّنا الله .

تعال معي لنـرَ واقع المرأة الأوروبيـة في أوروبا ، إنَّ الفتـاة في أوربّا عندما تولد غالباً ما تولد من أسرةٍ غير شرعيّة ؛ بحيث إنَّها لا تجد لها أباً تنتمي إليه ، وإنّما تنتمي إلى أمّها ، وهنا تكون الأمّ مخيّرة بين أمرين : إمّا أن تكون أماً قاسية

القلب فتقذف بهـذه الفتاة إلى دورٍ لرعاية الأطفال ، وتنصرف عنها لتتابع ملذاتها الشهوانية الحيوانية دون اكتراث بمستقبل هـٰذه الطفلة ، وإما أن تكون أمّا قد بقيت في نفسها مكامن الأمومة وغرائز العطف فتحضن هـٰذه الفتاة لتتولى رعايتها وتربيتها .

أولاً: مع الفتاة التي ولدت ثمّ قذف بها إلى دورٍ للأطفال :

لا شكَّ أنَّه لا يوجد في الكون بأسره إنسان قادر على رعاية الأطفال كما ترعى الأمّ أطفالها ، وإذا نظرنا إلى هـٰذه الدور المتخصصة برعاية الأطفال نجد أنَّ هؤلاء الأطفال يعانون معاناةً شديدةً جداً ، سواء في مأكلهم ومشربهم ، وسواء في تطبيبهم وفي جميع الأمور الأخرى. كلّ ذلك في كفّة والقسوة التي يعامل بها الأطفال في كفة ، فيخرج هؤلاء الأطفال أصحاب أمراض نفسيّة قد انشرخت أرواحهم وعواطفهم ومشاعرهم وتلبست بهم جميع الأمراض العصبية ، نتيجة لفقدهم عاطفة الأمومة ، والّتي تعتبر غذاءً أساسيّاً كالحليب تماماً. وعندما تنشأ تلك الفتيات وهؤلاء الفتيان في مثل تلك المدارس المعدة خصيصا لمثل هؤلاء الفتيان المشردين ، يصعدون إلى مجتمع مظلم ، فيجدون هناك أناسا لهم آباء وأمهات ، وهم أبناء زنا لا آباء لهم ولا أمّهات ، مما يزيد الأمر سوءاً.

ونتيجة لتشاغل الموظّفين بأمورهم الشخصية يغدو هـٰذا الجيل بعيداً عن كلّ معاني التربية .

وكيف إذا علمت أنّ التربية الأوروبية أساساً هي تربية فاسدة ، بحيث إنّهم يدرّسونهم على مقاعد الدراسة الابتدائية ثقافة شيطانية تدعى بثقافة الجنس .

وقد نُقِلَ أنَّ هناك مدرّسةً في بريطانيا تقوم بتطبيق الممارسات الجنسيّة في حصة عمليّة أمام التلاميذ من الذكور والإناث من أجل تثقيفهم بالثقافة التي يعتبرونها ثقافة عصريّة ، وإليك أن تتوقّع النتائج المترتبة على ذلك .

فهناك مجتمع يقول : تعالوا لنمارس الجنس بحريّةٍ مطلقة ، وهناك مناهج تدرّس على مقاعد الدراسة ، وهناك أساتذة إما أن يمارسوا وإما أن يستعينوا

بالصور أو الأفلام التي تنقل هـٰذه النماذج ، ويرى ذلك التلميذ صديقة له إلى جواره ، وترى تلك الطفلة صديقاً لها إلى جوارها ، والمجتمع بأسره يدفع إلى الدعارة ، وإليك أن تتخيّل العواقب.

وليس بأمر بعيد ولا غريب إذا انتقلت هـٰذه الفتاة إلى مرحلة إعدادية ، وحملت في أحشائها جنيناً ، أن تقذف به في المدرسة ذاتها التي تخرّجت منها ، لأنّها أصلاً لم تعلم شيئاً يسمى أمومةً أو عاطفة أو رعايةً أو أبوّةً ، وبطبيعة الحال سوف تورّث هـٰذا الداء إلى أبنائها ، وإليك أن تنظر إلى مجتمعٍ مليءٍ بالمعقّدين والمجانين والزناة والمجرمين..

ثانياً: إذا كانت هـٰذه الأم التي ولدت طفلاً عن طريق الزنا تتحلى بمشاعر الأمومة والغرائز العاطفية الطبيعية التي كوَّنها الله في كيان المرأة ، فإنَّها تحضن ابنتها ، وتقوم على رعايتها ، وأقصد بهـٰذه الحالة النّساء اللاتي لم يتربين أصلاً في مثل هـٰذه المدارس.

أمَّا النساء اللاتي تخرَّجنَ من هـٰذه المدارس ، فالاحتمال بأن يقمن برعاية أطفالهن احتمال بعيد وبعيد جداً.

فتغدو هـٰذه المرأة وقد حملت على كاهلها أعباءً متعددةً ومتنوِّعة ، فهي تسعى من أجل رغيف الخبز ، وتسعى لتربِّي طفلتها ، وتسعى لتؤمِّن دار السكنى ، لا سيّما أنَّ الأب لا يتعرَّف على مثل هـٰذه المسؤوليات.

فترى أنَّ هـٰذه المرأة تتخبَّط في شقاءٍ وتعاسة بين العمل وبين رعاية طفلتها ، وبين تأمين أسباب المعيشة ، وتعيش في ظلمٍ كبير ، وإليك أن تقدِّر حاجة هـٰذه المرأة في ذلك المجتمع الصناعي الجامد. وإذا توجَّهت المرأة إلى زوجها الذي كان أباً لهـٰذه الطفلة ، سواءً كان أباً شرعياً أو غير شرعي ، تجد أنَّه ينهرها ويزجرها ولا يتعرَّف على شيءٍ من تكاليف الحياة ، وكلّ ذلك تحت مرأى من هـٰذه الطفلة التي تنشأ بتعاسةٍ نفسيَّة وشعورٍ بالذعر لا يطاق ، وليس ببعيد أن تتعوّد هـٰذه الطفلة على وجود صديق جديد لأمِّها ، يأتي فيعاشرها داخل هـٰذه الأسرة الصغيرة.

وإذا كانت معاملة الأب الحقيقي لهـذه الطفلة بهـذا السوء ، فعليك أن تتوقع معاملة هـٰذا العشيق الجديد لهـذه الطفلة ، وكم حدثت قصص وروايات يخرج فيها العشيق من فراش الأم فيتابع مسيرته الداعرة إلى فراش الطفلة ولو كان عمرها خمس أو سبع سنين فقط ، فإنَّ ذلك الخنزير لا يتورَّع عن مثل هـٰذه الجريمة ، وليس لهـذه الأسرة راعٍ ، فلا كابح يكبحه ، ولا رجل يمنعه ، ولا دين يردعه .

وأذكر قصَّةً في هـٰذا المقام بثَّت على شكل فيلم أجنبي ، وكم من الأفلام الأجنبية التي تعبِّر عن واقعهم الاجتماعي المزري :

فقد انفصل رجل عن امرأته ولهما طفلة ، وأخذت هـٰذه المرأة تبيح لصديقها أن يعاشرها أمام ابنتها وفي بيتها الخاص ، ونتيجةً لذلك أخذت هـٰذه الطفلة وهي في سن الخامسة أو السادسة من عمرها تتساءل عن هـٰذه المضاجعة وما هي أسبابها؟ وأخذ هـٰذا الخنزير يقوم بتعليمها ، فيمسك بيديها الصغيرتين الطاهرتين اللّتين لم تعرفا ذنباً لبراءة طفولتها ، فيداعب بهما أعضاءه القذرة .

هـٰذا نموذج واحد من الأفلام التي تبث ، وهو فيلم صادق ينقل حقيقة اجتماعيَّةً تحدث يوميّاً لا مئات المرات بل آلاف المرَّات في الحضارة الأوروبية والأمريكية التي يسعى هؤلاء العملاء إلى نقلها إلى مجتمعاتنا العربية والإسلامية .

وإليك نموذجاً عن بعض القصص التي تجري في أوروبا :

أوردت بعض وكالات الأنبـاء الإيطاليـة أنَّ شخصاً قتل آخر ، وعندما حُقِّقَ في الموضوع تحقيقاً جنائياً دقيقاً قُبِضَ على القاتل ، وعندما سُئِلَ عن السبب الّذي دفعه للقتل ، أجاب مصرِّحاً بأنَّه باع زوجته بـ ٥٧٠ جنيهاً إسترلينياً ، وقبض من المشتري ٤٠٠ جنيه إسترليني وتباطأ المشتري أو امتنـع عن تسديد باقـي المبلغ ، فلم يجد وسيلة للانتقام إلا قتله[1] . وليس هـٰذا الخبر عجيباً في المجتمعات الأوروبية ، أو إنه إذا كان عجيباً فلا يأخذ بألباب العقول؛ لأنَّ

---

(١) مجلة حضارة الإسلام : المجلد الثاني ـ ص : ١٠٧٨ ـ الصادرة في عام ١٩٦٢ م .

الرجل الذي يبيح لعشيق ابنته أن يدخل ويفجر بها على فراشه لا يتورّع عن أن يبيع زوجته أو أن يؤجّرها.

وإذا طُبِّقَتْ هـٰذه المعايير على مجتمعاتنا الإسلامية والشرقية، ترى أنَّ هـٰذا الرجل يستحقّ القتل بالحجارة حتى الموت، وأنَّه يعاقب عقوبة كبيرةً تعزيريةً ربَّما بلغت حدَّ القتل، وهـٰذا في حال قيامه بتأجيرها أو بيعها، أمَّا إذا قام بالقتل فإنَّه يقتل قطعاً تطبيقاً لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

ولا شكَّ أنَّ هناك أناساً من المعتدلين في الفكر الأوروبي قد أنصفوا الإسلام، ويذكرون الحقائق الواقعية التي جاء بها الإسلام، والتي تنسجم مع كرامة الإنسان، وتنسجم مع كرامة الرَّجل والمرأة على السواء، وينتقدون الواقع الاجتماعي الأوروبي الذي أدَّت إليه هـٰذه المدنية الحمقاء الرعناء، ومن هؤلاء (جورج سال) الذي قال: (ليس صحيحاً ما ينسب إلى الإسلام من التّهم الكاذبة التي نسبها إليه بعض الكتَّاب وذلك بقولهم: إنَّه لا يَعتَبر المرأة ذات نفس)[1] فإنَّ هـٰذا الكاتب والمفكِّر الغربي المنصف ذكر شيئاً من الحقيقة بعد أن اطَّلَع على نصوص القرآن، ولا سيّمَا أنَّه قام بترجمته، فماذا يقولون بقوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

فكيف يزعم هؤلاء المغرضون أنَّ الشريعة الإسلامية اعتبرت المرأة حيواناً ذكيّاً، وأنَّ تعاليم الرّسول الكريم محمّد ﷺ جاءت بذلك؟!

هناك أنواع من الكذب، فهناك الكذب الذي يوجّه إلى الأذكياء، وهناك الكذب الذي يوجه إلى الأغبياء، وهناك الكذب الذي يوجه إلى الناس سخرية بهم واحتقاراً لعقولهم، وهـٰذه الفرية التي نحن في صددها الآن هي من النَّوع الثالث، فعندما يقولون: أيّها العرب وأيها المسلمون إنَّ شريعتكم تتعامل مع

---

(١) في مقدمته لترجمة القرآن الكريم بالإنكليزية ص: ٨٨.

المرأة كأنَّها حيوان ذكي ، فإنهم بذلك يسخرون من فكرنا؛ لأنَّ هٰذا شيء لا يمكن لأدنى طفلٍ صغير قد اطَّلع على شيء يسير من الآيات القرآنية أن يصدِّقه أو يخدع به.

وماذا يقول هؤلاء الحمقى بقول رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجميّ إلا بالتقوى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح»[1] ، وماذا يقولون بقوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] فلم يقل سبحانه وتعالى إنَّ أكرمكم عند الله ذكوركم. ولكن في حقيقة الأمر إنَّ العتب لا يوجه إلى الأوروبيين ، لأنَّهم أعداء حقيقيون يعلنون عن عداوتهم صباح مساء ، وإنما اللوم والعمالة توجَّه للذين يحملون أفكارهم على عاتقهم وينشرونها في بلادنا ، واللّوم أيضاً يكون على أبناء أمتنا الذين وصلوا من السخف الحضاري والسذاجة العلمية إلى درجة أنَّهم يخدعون بأتفه الوسائل والأسباب.

قالت آني بيزنت[2]: (ما أكبر خطأ العالَم في سوء تفسير نظريّات النبي محمّد ﷺ فيما يتعلّق بالنساء ، فقد قيل: إنَّه قرر بأن المرأة لا روح لها ، فلماذا هٰذا التَّجنّي على رسول الله ﷺ؟)[3].

ثمّ تابعت فقالت: (ولا تقف تعاليم النبي ـ ﷺ ـ عند حدود العموميات ، فقد وضع قانوناً لوراثة النساء ، وهو قانون أكثر عدلاً وأوسع حريّة من ناحية الاستقلال ، الاستقلال الذي منحها إياه القانون المسيحي الإنكليزي الذي كان معمولاً به قبل عشرين عاماً فقط ، فما وضعه الإسلام للمرأة يعتبر قانوناً نموذجيا ، فضمن لهنَّ الحماية بكلّ ما يملكنه ، وضمن لهن الحماية في جميع حصصهنّ الإرثية)[4] ، ويقول (بول تيتو)[5]: (لا ننسى أن القرآن أصلح وضع

---

(١) مسند أحمد: ج٥ ـ برقم ٢٢٣٩١.

(٢) مؤلفة أوربية تبحث في الأمور الصوفية ومن كتبها الأديان في الهند (الموسوعة الأكاديمية).

(٣) المرأة بين الفقه والقانون ـ مصطفى السباعي ص: ٢١٣.

(٤) مجلة الأزهر المجلد الثامن ص: ٢٩٠.

(٥) مفكر إنكليزي وكاتب فلسفي من كتاب أعلام الغرب ص: ٢٥٨.

المرأة في الأمور الاجتماعية إصلاحاً عظيماً)[1].

هـٰذه هي اعترافات المفكّرين الأوروبيين المنصفين ، وإذا أردت أن تعلم كم عدد هؤلاء المنصفين ، ترى أنهم أقليّةٌ تكاد لا تذكر بالمقارنة مع المفكرين الحاقدين الذين وجّهوا أقلامهم لحرب الإسلام ، والتهجّم على نبي الإسلام محمد ﷺ.

ويكفي أن تعلم أنَّ الفتاة في أوروبا أو الولايات المتّحدة الأمريكية ، إذا بلغت سن الرشد وأصبحت قادرة على الخروج للعمل ، وجب عليها أن تسعى لتكسب رغيف خبزها؛ لأنَّ ذلك الأب لا يكلّف بالنفقة عليها ، بل إنّه غرق إلى شحمتي أذنيه في ملذاته الشخصيّة وانكبابه على الخمر والمخدرات والعاهرات.

ويكفي أن تتصوّر أنَّ هـٰذه الفتاة التي خرجت إلى المجتمع وهي تعلن فقرها وحاجتها إلى رغيف الخبز ، كيف ستستغل وما هي صورة الاستغلال الذي ستتعرض له؟.

فهناك الكثير من الفتيات الصغيرات في أوروبا ينمن على الأرصفة ، وعلى قوارع الأزقة ، بل وإنهنّ يجبرن على ممارسة الرذيلة والدعارة في أقبية الليل ، ونوادي المومسات ، من أجل الحصول على أقل من القليل من أسباب المعيشة ، مع أنّك تجد أن هـٰذا الأمر ليس موجوداً في مجتمعاتنا العربية الإسلامية ، وأعني بالمجتمعات الإسلامية المجتمعات التي تطبّق الشريعة الإسلامية.

أمّا المجتمعات التي غدت مسخاً للواقع الأوروبي التعيس ، فقد وجد فيها أشكال متعددة من المصائب والمآسي.

فإنَّ الأب في الشريعة الإسلامية هو المسؤول مسؤوليةً تامة وكاملةً عن النفقة على بناته وأبنائه ، فإذا بلغت البنات سنَّ الرّشد لا ترتفع هـٰذه المسؤولية عن هـٰذا الأب ، ويبقى مسؤولاً عنهنَّ حتى ولو غدا عمر الواحدة سبعين عاماً.

---

(١) مجلة الأزهر المجلد العاشر ص: ٧١٢.

فإذا توفي هـٰذا الأب ولم تتزوَّج هـٰذه الفتاة ، انتقلت مسؤولية نفقتها إلى أخيها ، فهو مسؤول مسؤوليةً شرعيّةً وقانونيةً أن يؤدّي لها نفقةً كاملةً لائقةً بحياةٍ شريفةٍ كريمةٍ .

أمّا إذا انتقلت إلى زوجها فقد انتقلت هـٰذه المهمة وهـٰذه العهدة إلى الرّجل الذي ارتبطت به ، ومن المعروف أنَّ رسول الله ﷺ قال :

«إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه»[1] .

فعندما تُزوَّج هـٰذه المرأة تبعاً للتعاليم الإسلامية من رجلٍ على خلقٍ وعلى دين ـ وأميّز هنا بين كونه على خلق ، وكونه على دين ـ فربَّما كان رجل على دين لا أخلاق له ، وربّما وجد رجل على خلقٍ لا دين له ، وفي كلتا الحالتين ستترتّب مشاكل ومآسٍ اجتماعية ، ستكون المرأة أوّل من يذوق مرارتها .

فإذا تمَّ الاختيار بناءً على المعايير الشرعية ، كان الزوج ملتزماً كما أمره الله عز وجل بالنفقة على زوجته ، وبكفايته لها ، وإنَّ القانون الشرعيَّ يعاقب الرَّجل المقصِّر ، وتستطيع الزوجة أن تطالب بنفقتها ونفقة عيالها أمام القضاء الشرعي لتحصل عليه .

بينما ترى المرأة الأوروبية مسؤولة بشكل كامل عن نفقتها من الساعة التي تستطيع الخروج فيها إلى العمل ، ولو كانت صغيرة السن حديثة العهد ، قليلة التجربة ، وسوف تقع بطبيعة الحال بأيدي الذئاب المنتشرين هنا وهناك ، الذين سيستغلّونها ويستغلّون شبابها وأنوثتها .

وأمّا إذا قدِّر لهـذه المرأة الأوروبية أن تتزوّج ـ ومن المعروف أنّ الزواج في أوروبا ذو نِسَبٍ ضئيلة جداً؛ لأنَّ كلاً من الرجل والمرأة يبتغي متعته خارج نطاق الزوجية ـ فلسان حالهم يقول : لِمَ هـٰذه التكاليف ، ولمَ هـٰذا الارتباط؟!

ولكن إذا قدّر لهـذه المرأة الأوروبية أن تتزوّج ، وغالباً ما يتزوّج الرجال في سنٍّ متأخِّرة ، ترى أن كلاً من الرجل والمرأة مسؤولَيْن مسؤوليةً شخصيةً عن

---

(١) سنن الترمذي : ج٢ برقم ١٠٩٠ .

نفقته ، فإذا كانت المرأة ثريّةً كانت مسؤولة عن ذاتها ، وأمّا إذا كانت فقيرة فزوجها ليس مسؤولاً عن فقرها ، وربّما اجتمع في بيت واحد رجل يأكل اللَّحم وامرأة تحلم برغيف الخبز ، هـٰذا إذا قدِّر لهما أن يأكلا على منضدةٍ واحدة ، فغالباً ما يأكل كلّ منهما في مكان عمله .

وتصوَّر أنَّ مرضاً عضالاً قد أصاب هـٰذه المرأة فأقعدها عن العمل ، فترى أنّ زوجها سرعان ما يدير لها ظهره ويبتعد عنها ، وليس هناك أي مسؤولية قانونية تدفعه إلى أن يُشرف على صحة هـٰذه الزوجة وأن يحمل المسؤولية التي أناطها الله به .

وعليها في هـٰذه الحال أن تطرق أبواب الجمعيّات الاجتماعية والمؤسسات الخيرية ؛ ليقدّموا لها العون إذا وجد .

أمَّا الشريعة الإسلامية فقد قدّست المرأة ، وجعلت الرجل مسؤولاً عن النفقة مسؤوليّةً كاملةً ، فقسَّمت المهام ، فكان على الرجل النفقة ، وكان على المرأة رعاية البيت والأولاد ، وكل من هـٰذه المهام يتناسب ويتوافق مع نفسية الرجل والمرأة ، ومع ما فطر الله عليه عباده من الحاجات النفسية والجسدية ، والإمكانيّات المتفاوتة بين الطرفين ، فكلّ ميسَّر لما خلق له .

إذا أردت أن تنظر نظرةً دقيقة إلى المرأة ، تجد أنَّ المرأة تعبُر في مراحل مختلفةٍ من عمرها ، فتبدأ طفلة ثمَّ تكون شابة يافعة تفيض جمالاً وحسناً ، ثمَّ ينتهي بها المطاف إلى الكهولة والعجز والشيخوخة ، فترى أنَّ الرَّجل الذي كان ينحني خاشعاً ليقبِّل يدها في محفلٍ اجتماعيٍّ كبير وهي شابة ، يركلها بقدمه عندما تكون مسنّةً !

وكم من الحالات التي ضربت بها النساء ضرباً عنيفاً من قبل زوجٍ أو صديق ، وذلك لأنّ المرأة تتمسَّك بذلك الرَّجل الذي قدَّمت له سنين شبابها ، ولكنّه ما يلبث أن يتململ منها ويلتفت إلى امرأة أخرى ، ولا سيّما بعد أن تفقد هـٰذه المرأة كثيراً من صفات أنوثتها فتتعرّض له تمسّكاً به ، فلا يجد وسيلةً إلا أن يؤذيها ويضربها ، وتصل في كثير من الحالات إلى القتل ، وهـٰذا أمر لا يخفى على الأمريكيين والأوروبيين ، بل ولا يخفى على مثقّفي العالم بأسره .

فلعلّك ترى امرأةً عجوزاً تعيش في بيتٍ صغير ، لا تجد من يملأ عليها وحدتها سوى كلبٍ صغيرٍ ، قد اتَّخذته صديقاً وأنيساً وزوجاً وعشيراً! وقد أوصدت على نفسها كميةً هائلةً من الأقفال نتيجةً لضعف المرأة الذي خلقه الله فيها ، وحاجتها لمن يحميها ، ونتيجةً لعجز هـٰذه المرأة ووحدتها وشيخوختها يتضاعف الإحساس بالرعب وقلة الأمن ، ولا سيَّما في تلك البلاد التي تسري فيها الجريمة سريان النار في الهشيم .

وقد راعت الدول الأوروبية ذلك المصير المشؤوم لهؤلاء النسوة ، فأسست لهم دور عجزة من أجل أن يجلسوا فيها كقاعات انتظارٍ بانتظار ملك الموت الذي سينقلهم من هـٰذه الدار إلى الدار الآخرة .

وإذا نظرت نظرةً متعمِّقةً إلى هـٰذه الدور ترى أنَّ أعضاءها يفيضون كآبة وحزناً ويأساً وقلقاً ، وأمراضاً نفسيَّةً وعصبية متنوّعة ، ويعانون أشكالاً من العذاب والمرار ، مع أنَّ مظاهر هـٰذه الدور من الخارج تبدو مزخرفةً وجميلةً ومحسَّنةً ، ولكنَّ الظاهر شيء والباطن شيء آخر .

وفي حال كون هـٰذه المرأة صاحبة حظ جيِّد ، تحظى بزيارةٍ شهريَّةٍ أو سنويَّةٍ من إحدى بناتها أو أبنائها ، فيجلس إليها دقائق معدودة ويحمل إليها باقةً من الورد ليقول لها : كلَّ عامٍ وأنت بخير ، ثمَّ يلتفت موليّاً لها ظهره ولا تراه إلاَّ في عامٍ قادم .

هـٰذه هي التربية الأوروبية ، وهـٰذه هي المرأة الأوروبية ، النموذج المثالي الأسطوري الذي يسعى عملاء أبناء جلدتنا من العرب والمسلمين إلى تصديره إلينا وجعله حقيقة واقعة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية .

مع أننا نعلم علم اليقين أنَّ برّ الوالدين في الشريعة الإسلامية يعتبر أمراً عظيماً، فقد قال عز وجل: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

فقد ربط الله عز وجل برَّ الوالدين بأمرٍ عظيمٍ خطير، وهو إفراد العبودية لله

عزَّ وجل ونحن نعلم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

فإنَّ الإشراك بالله أمر لا يغفر الله فيه أبداً ، وقد قرن الله برّ الوالدين بعملية الإشراك، فانظر كم أنَّ للوالدين قيمةً عظيمةً في الشريعة الإسلامية ، وانظر إلى المرأة الأوروبية كيف فقدت أبناءها، وفقدت فلذات كبدها الذين قضت عمرها في تربيتهم وفي إسعادهم. هـٰذا هو النموذج الذي يطلب إلينا أن نطبّقه في بلادنا.

وفي حال إصابة هـٰذه المرأة بمرضٍ خطيرٍ عضال ، وكانت لا تمتلك أموالاً لمعالجة نفسها أو لإجراء عمليَّةٍ جراحيَّةٍ ما ، فإنَّها لا تحلم أن تطلب من زوجها ، ولا تحلم أن يتبرَّع أحد من أبنائها لإنقاذها من الموت ، فيتركونها تعاني من الآلام بانتظار قدر الله.

ولا ننسى قول الله تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ ﴾ [لقمان: ١٤].

إذن فقد أمر الله عباده أن يشكروه وهو المنعم وهو الخالق وهو المتفضِّل ، وهو الذي أمدَّهم بكلِّ نعمةٍ يتمتَّعون بها ، ولكنَّه عزَّ وجل أرشدهم أن يشكروا إلى هـٰذا الخالق العظيم وإلى الأب والأم.

فانظر إلى قداسة المرأة في مجتمعاتنا الإسلاميَّة ، ومن المعروف أنَّه كلَّما كبرت المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية كلَّما زاد احترام أبنائها لها ، وكلَّما أصبح قرارها قراراً قوياً لا يمكن لأحدٍ أن يتجاوزه ، على العكس تماماً من المرأة الأوروبية ، فإنَّهم يتلقّفون منها ساعات لذة ، وفي نهاية المطاف يركلونها بأقدامهم ، وليس من مجير!

* * *

المبحث الثالث

(عمل المرأة)

أمَّا قضيَّة العمل فإنَّه يحلو للكثيرات من بنات بلادنا ـ نتيجةً لهـذا الغزو الفكري ـ أن يخرجنَ للعمل ، ولا إشكال في الخروج للعمل إذا كان ينسجم مع الضوابط الشرعية والقواعد الإسلامية ، وتراهم يغرّرون بنسائنا بأن الأوروبيات يعملن بأعمالٍ راقيةٍ يشتهينها ، ولكنَّ الحقيقة على خلاف ذلك ، فالمرأة في أوربّا تتناول جميع أنواع الأعمال ، فتارةً تراها تعمل طبيبة ، وتارةً تراها تعمل قاضية ، ولكن ليس جميع النساء تعملنَ طبيبات وقاضيات ، فربما ترى إحداهنَّ تعمل ماسحةَ أحذيةٍ ، وربّما تراها تعمل عاملةَ تنظيفات .

فانظر إلى هـٰذه المرأة التي تجلس على قارعة الطَّريق ، ثمَّ يمرّ شاب فيضع حذاءه بمحاذاة رأسها ، وتركع إليه من أجل أن تلمِّع له هـٰذا الحذاء .

وانظر إلى هـٰذه المرأة التي تعمل في تنظيف القمامة من الشوارع ، وكم هناك من الأعمال السيئة ـ ولا سيما في أنفاق المترو ـ التي تعمل فيها النِّساء إلى منتصف الليل بين بردٍ شديد وخوفٍ رهيب ، ولا سيَّما في مجتمعات غدت فيها الجريمة هي الأمر المألوف .

ولا تُلام المرأة على ذلك؛ لأنَّ المجتمعَ قد حكم عليها بهـذا الحكم القاسي ، فإذا لم تعمل ماتت من الجوع ، فلم يكلَّف أخ بالإنفاق عليها ، ولم يكلَّف أب ، ولم يكلَّف زوج بهـذا الإنفاق .

وشتّان بين عمل المرأة الغربية وعمل المرأة العربية ، فيكفي أنَّ المرأة العربية تخرج إلى العمل لا بدافع الجوع ، إنَّما بدافع المشاركة في بناء المجتمع .

فهي تعلم أنَّها إذا قعدت في دارها ولم ترغب في العمل ، فإنَّ هناك في الشريعة الإسلامية من يكلَّف بالإنفاق عليها ، أمَّا في قوانينهم الغربية فكأنَّها تعيش وحدها في صحراء لا يوجد من يكلَّف بالإنفاق عليها .

وإليك أن تتصوَّر هل يبقى من معالم أنوثة المرأة شيء إذا مارست أنواعاً من الأعمال التي تقضي على أنوثتها؟

قال أحدهم : إنَّه هبط في مطار من مطارات فرنسا ، فشاهد سيارةً تتقدَّم إليه ، ثمَّ نزل منها مخلوق غريب ففتح الصندوق الخلفي وأخذ يحمل الحقائب ويقذفها داخل هـٰذا الصندوق ثمَّ أغلقه ، وهو يرتدي البذَّة ذات اللَّون الرمادي التي يرتديها جميع السائقين ، ثمَّ تقدَّم هـٰذا المخلوق العجيب وخاطبه ، فلم يعرف أنَّه أنثى إلا من خلال صوتها الرقيق!

لقد ضاعت جميع معالم الأنوثة من تقاسيم وجهها ، وشكل جسدها .

فانظر إلى انعكاس هـٰذا العمل على هـٰذه المرأة ، وهـٰذا معروف في علم النَّفس ، ولا يخفى على مثقَّف أنَّ العملَ ينعكس بطبيعته على الذي يعمل به .

وأذكر مثالاً عايشته أنا :

لقد ذهبت إلى الاتّحاد السوفييتي في عام ١٩٩٢ م ، فوجدت مجموعةً من النساء ، إحداهنَّ تحمل ساطوراً ينهال على الحيوانات بالذبح ، والله ما شككت أنَّه رجل إلا عندما لفت أحد المرافقينَ نظري وقال : إنَّها امرأة! ثمَّ تابعت سيري فوجدت طوابير من النِّساء تقف على محطَّات المترو تلاحق الأجانب ، وعلمت أنَّهنَّ المومسات اللواتي يلاحقنَ الأجانب ليحصلن على رغيف يومهن نتيجةَ ظلم المجتمع الأوروبي لهن ، فلم يجدنَ وسيلةً إلا أن يتاجرن بأعراضهنَّ وشرفهن في سبيل لقمة عيشهن .

ثمَّ مررت في أحد الشوارع على متجر ، فنظرت إليه وإذا بامرأةٍ لها شكل الرجال تعمل في دهن الجدران ، وعلمت عند ذلك الحكمة العظيمة في الشريعة الإسلامية التي كرَّمت المرأة والتي جعلت للنساء حقوقاً ، ولا سيَّما بالإنفاق عليهنَّ .

ولا أريد من السامع أو القارئ أن ينظر إلى المجتمعات الأوروبية وكأنَّها ـ كالمجتمعات الألمانية والفرنسية فقط ـ هي المجتمعات الغنية فهناك مجتمعات أوربية فقيرة ، فالمجتمع اليوناني والمجتمع البلغاري والمجتمع التشيكوسلوفاكي كلّها مجتمعات أوربية فقيرة ، وهٰذا القانون الذي يطبَّق على الدول الغنية يطبَّق أيضاً على الدول الفقيرة ، ومن الوهم بل ومن الحمق أن نتصور جميع الإنكليز أو الفرنسيين أو الأمريكيين أغنياء ، فهناك فقر مدقع وهناك أناس يعيشون تحت الأنفاق والجسور نساءً ورجالاً ، تحوَّلوا إلى مجرمين وعاهرات؛ لأنَّهم لا يجدون غرفةً خشبيةً يأوون إليها ، فكفانا انخداعاً بهٰذه الصورة الكاذبة التي يقوم العملاء بتصديرها إلينا نحن المجتمعات العربية الإسلامية.

انظروا إلى الحقائق كما هي ، انظروا إلى الظلام كما هو ، انظروا إلى المساوئ كما هي. فالحمد لله على نعمة الإسلام والحمد لله الذي جعلنا مسلمين.

ونتيجةً لهٰذا التغريب والغزو الثقافي الذي يصيب أمتنا العربية ، مرَّت معي قصة ، لقد طلبت منّي زوجتي أن تتدرَّب على سواقة المركبة ، فبحثت عن امرأةٍ لأجل تدريبها واتَّصلنا بها وتولَّت عمليَّة التدريب ، وكانت هٰذه المرأة متخصصةً بالتدريب على قيادة المركبات وحين عادت زوجتي قصَّت عليَّ أمراً عجيباً ، قالت: والله إنِّي جلست أمام امرأة وشعرت بخجل شديد وكأنني أجلس أمام رجل ، لقد وجدت السمرة في وجهها والسمرة في يديها مع أنَّها فتاة شقراء ، نتيجة تعرّضها لأشعة الشمس ، وجدت لكنةً حادة ، وكانت لا تسقط السيجارة من يدها ، تمدّ يدها من خارج شباك المركبة ، فتصيح بالرجال وكأنَّها رجل عنيف الطباع ، وأخذت تكلّمها عن حياتها الشخصيَّة فقالت لها:

إنني أعود إلى منزلي في الحادية عشرة ليلاً ، فأرى أمي قد أعدَّت لي العشاء ونصبت لي الأركيلة ، انظر إلى هٰذه المرأة التي تحوَّلت إلى رجل ، والتي ضاعت منها جميع معالم الأنوثة.

إنها تعاني من العنس لأنَّها لم تتزوَّج ، وكيف لهـذه المرأة أن تتزوَّج ، وما الذي سيجده فيها الرَّجل؟ أليس الرَّجل إنما يبحث عن صفة الأنوثة! فإذا فقدت هـٰذه المرأة أكبر وأثمن ما تمتلكه وهي أنوثتها ، فكيف للرجال إذن أن يتزوجوا بها؟ وعليها هنا أن تبحث عن رجلٍ قد فقد كثيراً من رجولته حتى غدا يتمتَّع بصفاتٍ كثيرة من صفات النساء ، عند ذلك يتلاقيان في مكانٍ واحد ويتمّ الانسجام ، ولا سيَّما أنَّ ظاهرة هؤلاء الرجال قد انتشرت في بلادنا ، فترى رجلاً قد أطلق شعره إلى أسفلِ ظهره ، وتنظر إلى شفاهه فتجده وقد دهنها بالحمرة وقد لوَّن وجهه بأشكالٍ وألوانٍ عجيبة ، أعتقد أنَّ هـٰذه السائقة إذا أرادت أن تبحث لها عن زوج ، فليس لها إلا مثل هـٰذا المسخ ليكوِّنا أسرةً شيطانيَّةً شاذة .

إنَّها نماذج اجتماعيَّة نراها يوميّاً وقصص نتداولها يوماً بعد يوم وجيلاً بعد جيل ، إنَّها آفات التغريب ، وآفات الغزو الفكري التي اقتحمت مجتمعنا ، وليس لهـذه المجتمعات من سبيلٍ إلى الإنقاذ وإلى اليقظة وإلى التحرر إلا العودة والتمسك بمنابع هـٰذه الشريعة الغراء .

أما المساوئ التي نعاني منها في مجتمعاتنا العربية الإسلامية ، فهي أنَّك ترى أن المحاكم الشرعية مكتظة بأعداد هائلة من الناس وأغلبهنَّ قد ظلمن من قبل أزواجهن ، فلا ينسب السبب إلى الشريعة الإسلامية ، ولكن ينسب إلى هؤلاء الذين لم يقوموا بتطبيق الشريعة الإسلامية بشكلها الحقيقي والعادل .

إنَّ القاضي على سبيل المثال يفرض نفقةً للزوجة ٥٠٠ ل.س ، ويفرض نفقةً لكل ولد ٧٠٠ ليرة سورية ، وأنت تعلم أنَّ هـٰذا شديد الإجحاف ، بل إنَّه بعيد كلَّ البعد عن المنطق .

إنَّ غيارات الأطفال التي يحتاج الطفـل إلى سبع أو ثمـان علب منها شهرياً ، تكلِّف الواحدة منها ٣٠٠ ليرة سورية ، عدا عن النفقات الأخرى والعلاج والأدوية ، فإذا أراد القضاء الشرعي أن يكون منصفاً حسب ما أمره الله ويعود إلى تطبيق شريعة الله عز وجل ، فيجب أن يفرض نفقةً لهـذه المرأة نحو

٧٠٠٠ ليرة سورية ، ونفقة لكل ولد من الأولاد أربعة أو خمسة آلاف ليرة سورية.

هـٰذا هو الإنصاف الشرعي ، وهـٰذا ما جاء في الشريعة الإسلامية ، أما ما يطبَّق اليوم فهو مسخ عن الشريعة الإسلامية ، وكل ذلك ينسب إلى الشريعة الإسلامية وهي منه براء. ومن الثمرات التي تتميَّز بها المرأة العربية المسلمة عن المرأة الأوروبية ، أن المرأة العربية المسلمة يعسر على الرجل أن يضربها فلا تتعرَّض امرأة في الطرقات أو الشوارع إلى رجلٍ يرفع يده إليها بسوءٍ أو بشرٍّ ، وإذا كانت هـٰذه الحادثة فإنَّك ترى أفواجاً من الرجال ينهالون عليه ضرباً لحمايتها.

أمَّا في الدول الأوروبية ودول أميركا ، فترى أن المرأة تتعرَّض في الطرقات للضرب المبرِّح أمام حشدٍ من الرجال ولا يتدخَّل في ذلك أحد!

فانظر من خلال هـٰذه اللقطة إلى كرامة المرأة الأوروبية ، وإلى كرامة المرأة العربية.

لقد حذَّرَ كثير من مفكِّري أوروبا المجتمع الأوروبي ـ ولا سيَّما النخبة المثقفة من هـٰذا المجتمع ـ من التفريق بين الرَّجل والمرأة في القوانين ، فإن عدم التفريق بينهما في القوانين سيؤدي إلى نتائج اجتماعيَّةٍ وإنسانيَّةٍ مدمِّرةٍ ، ومن هؤلاء الكاتب (غوستاف لوبون)[1] الذي قال:

(لقد قامت المرأة تطلب المساواة بينها وبين الرجل في الحقوق والتربية ، ونسيت ما بين النوعين من الفروق العظيمة ، وهي إذا فازت بمطلبها جعلت الأوروبي رجلاً من الرُّحَّل ، لا يعرف له بيت يؤويه ولا عائلة يسكن إليها).

لقد قال هـٰذا الكاتب الأوروبي هـٰذا الكلام قبل مائة عامٍ تقريباً ، وكانت بداية مطالبة المرأة الأوروبية أن تتساوى في كثير من الحقوق والتربية بالرجل الأوروبي.

---

(١) كاتب أوروبي ـ نقلاً عن المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي ص: ٢٢٨.

وفعلا كان ما قالَ هٰذا الكاتب ، فقد غدا الرجل الأوروبي لا يعرف بيتا يؤويه ، وترى أنّ أغلب الرجال الأوروبيين ينتقلون من حضن امرأةٍ إلى حضن أخرى ، ومن دار إلى دار ، ولا يتعرّفون على أسرةٍ ولا أولادٍ ولا على نفقةٍ ولا على شيء من هٰذا القبيل. فكانت المرأة حسب وعيها تناضل من أجلِ نيلِ بعض من حقوقها ، فدمّرت هٰذه الفلسفة الشيطانية جميع حقوقها.

فمن حقوق المرأة أن يكون لها رجل ، ومن حقوق المرأة أن يكون ذلك الرجل متكفّلاً بنفقتها ونفقة أولادها ، ومن حقوقها أن تشعر بالعطف والاطمئنان والأمن في حميمية الأسرة ، كل هذه الحقوق قد ضاعت وفرّطت بها المرأة نتيجة مخالفتها لقواعد الطبيعة وقواعد الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

ولقد جاء في مجلّة «الأيّام الدمشقية»[1] تحت عنوان مع الناس:

(أنَّ معلّقاً بريطانيًا يرفض الواقع الاجتماعي البريطاني في ذلك الزمان فيقول: كثيرا ما نشاهد موكبا من الدراجات البخارية ، ولا نستطيع أن نميّز إن كان موكبا من النساء أم موكباً من الرجال ، فجميعهم أصحاب شعور قصيرة ويلبسون السراويل القصيرة ، ويدخّنون السجائر ، فسبحان من قلب الرجال نساء والنساء رجالا!).

إنَّ هٰذا الواقع الذي غدا في أوروبا والذي يبشر بانهيارها حاليّاً هو ما يسعى الأوروبيون لنقله إلى بلادنا الإسلامية ، من أجل أن يكون الدمار مشتركا. فلا يخفى على عاقل حال الأسرة المتفككة في المجتمعات الأوروبية والأمريكية ، وأكاد أقول: إنّه لا يوجد في هٰذه المجتمعات أسرة ، بل إنّه لا يوجد أسرة في الحقيقة.

لا يوجد أمّ ترعى ، ولا يوجد أب ينفق ، ولا يوجد عشّ زوجيّة حميم ، ولا يوجد تربيةٌ حقيقيةٌ للأبناء ، إنَّ الأبناء يتلقّون تربيتهم من زملائهم في المدارس ، ومن الأفلام التي تدمّر بقايا القيم الأخلاقية في كيانهم.

---

(١) مجلة الأيام الدمشقية ١٥ كانون الثاني عام ١٩٦٢.

الأمّ منشغلةٌ عن أولادها في أعمالها الخارجية ، والأب منشغل عن أولاده في ملذّاته الشخصيَّة ، ولا نبرئ الأمَّ من الانشغال عن أولادها بملذّاتها الشخصيَّة ، فغدا جيل أمريكي أوروبي متفسِّخ لا يعرف إلا المتعة واللذة هدفاً ، يبتعد عن العلم ، ويبتعد عن كلِّ ما فيه جهد وتقدّم .

ومن أجل ذلك أدرك الأوروبيون أنَّ مجتمعهم في طريقه إلى الدمار ، فأخذوا يشجِّعون الهجرة إلى دول أوروبا وأميركا؛ لأنَّهم يحتاجونَ دماً جديداً ، أسراً حقيقية ، نشأت نشأةً إسلاميَّةً عربيةً وشرقية ، تعيد إلى هـٰذا المجتمع متانته ، من أجل ألا يتحطَّم كل التقدّم الحضاري ويهوي بهم في وديان سحيقةٍ من الخيبة .

فلم يعد الفتى الأوروبي أو الأمريكي يسعى إلى العمل ، ولم يعد يسعى إلى التَّحصيل العلمي . بل إنَّه يسعى إلى تحصيل الأموال عن طريق مكاتب رعاية العاطلين عن العمل ، من أجل أن يمارس شهواته ولذاته .

وحديثاً وفي هـٰذا العام ـ وأعني عام ٢٠٠٢ م ـ أيقن الأمريكيون أنَّ اختلاط الذّكور بالإناث في المدارس يسبب تراجعاً عظيماً في النهضة العلمية ، وأنَّ الفتيات عوضاً عن أن يخرجنَ يحملنَ شهاداتٍ دراسية ، خرجنَ يحملنَ أطفالاً من الزنى .

ثمَّ كثرت المجازر والجرائم التي تحصل في الولايات المتَّحدة الأمريكية ، ولا سيَّما في المدارس .

فكم من قصَّةٍ رأينا فيها أنَّ طالباً مراهقاً يبلغ من العمر الخامسةَ عشرة قد أخرج سلاحاً آليّاً وأخذ يقتل زملاءه فأباد العشرات والعشرات ، وعندما أيقنوا أن اختلاط الذّكور بالإناث أدى إلى كلِّ هـٰذه المصائب ، أصدرت الحكومة الفيدرالية قراراً بمنع الاختلاط بين الذّكور والإناث في المدارس ، لا رعايةً لحقوق الشريعة الإسلامية ، بل استجابةً ذليلةً منهم إلى حقائق الفطرة ، وقواعد التربية[1] .

---

(١) نقلاً عن قناة الجزيرة بتاريخ ٦/ ٥/ ٢٠٠٢ م .

ومن سخرية الأقدار أننا في دولنا العربية والإسلامية نسعى إلى تعزيز الاختلاط بين الذكور والإناث.

إنَّ الحذاء المهترئ الذي يلقيه الأوروبيون تقززاً منه وقرفاً من شكله، نتلقفه بأفواهنا لنحمله على رؤوسنا ونطبّقه في بلادنا، ولكن لا عجب من ذلك، فهـذا مصير كلِّ شعبٍ يتخلَّى عن دينه وعقيدته.

إنَّ هؤلاء العملاء الذين نأسف أنَّهم ينتمونَ إلى أبناء جلدتنا، يحاولون أن يجرّوا مجتمعنا إلى طريق الهاوية والخسران.

* * *